الفصل بين الدعوة والمجتمع والدولة

ـ 1 ـ

عرف العرب والمسلمون الدولة القانونية أول مرة في المدينة المنورة على إثر دعوة جديدة انطلقت من مكة المكرمة ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام، فارتبطت العلاقة بين الدعوة والدولة في أذهان المسلمين كوجود واحد لا انفصال ولا تباعد ولا وسيط بينهما، وكان لقيام الدولة العباسية ـ التي شكلت العقل العربي والإسلامي الفقهي والعقدي والسياسي إيجاباً أو سلباً ـ بعد دعوة وثورة إسلامية عارمة أثر كبير في الربط الوثيق بين الدعوة والدولة، فقد بدأت الدعوة العباسية دعوة إلى الكتاب والسنة وانتهت دولة سياسية[1]، وكذلك الدول الإسلامية التي قامت بعدها في المشرق والمغرب كانت تبدأ دعوة وتنتهي بالدولة، مما أوجد حالة من التلازم بين الدعوة والدولة في عقول العرب والمسلمين، وكأن الدولة لا توجد إلَّا عن طريق الدعوة، والدعوة لا تكون كاملة إلَّا إذا شملت في مشروعها الدولة التي تخطط لها وتعمل على إيجادها، دون النظر إلى دور الوسيط الاجتماعي الذي تعمل فيه.

هذا النمط من التفكير أثر على العمل الفكري والسياسي بين المسلمين، فصار على المفكر الذي يسعى إلى تحسين أحوال أمته كما هو الحال في الوقت المعاصر، أن يفكر بالدولة المثلى التي يتصورها، والمدينة الفاضلة التي يخطط ويعمل لإيجادها، فيبحث في أمر الدعوة التي تقوم بهذه المهمة الكبيرة، وتأثراً بالظروف السياسية القائمة من احتلال أجنبي مباشر لبعض الأقطار العربية والإسلامية، ومن استعمار مباشر أو غير مباشر لأقطار أخرى، فإنه يدرك بأن العمل الفردي غير قادر على التغيير وحده، فيسعى إلى العمل الدعوي الجماعي، أو العمل

(1) انظر الدعوة العباسية، مبادئ وأساليب، الدكتور حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، ص 111.

الفكري الحزبي، كل هذه التأثيرات الخارجية، وإضافة لما ذكرناه في فصل "تفكيك التلازم بين الفكر والدعوة" من تأثيرات فكرية آبائية واجتماعية علىٰ النشء الجديد، كل هذه المؤثرات الداخلية والخارجية في العمل النهضوي والفكري تؤدي بالمسلمين إلىٰ الربط الوثيق بين الدعوة الفكرية والدولة السياسية، فتجعل من الدعوة الفكرية بالمفهوم الحزبي ـ وإن لم تسمِ نفسها بالحزب ـ أساس عملها لإقامة الدولة المنشودة، وتجعل من عملها لإقامة الدولة سبباً في إنشاء الدعوة التي تفرض أفكارها علىٰ أعضائها، وعلىٰ المجتمع كله إن استطاعت، بل تحاسب المجتمع كله، وقد تكفره بناءً علىٰ وجهة نظرها في الدعوة والمجتمع.

يتم كل ذلك بحجة أن الخلاص من الاستعمار والعمل لإقامة الدولة الإسلامية المنشودة يتطلب وحدة الفكر، فتتخذ من الواقع الضعيف والنهضة حجة لفرض الاستبداد الفكري في دعوتها، وتتخذ من هذه الأسباب حججاً لرفض شرعية الاختلاف بين الاجتهادات الإسلامية، ورفض الشورىٰ العلمية المشاركة في العمل لتحقيق الأهداف الواحدة التي يسعىٰ إليها الجميع.

ـ 2 ـ

إن فرض وجهة نظر واحدة للدعوة الإسلامية أو فرض الأفكار النهضوية سواء وصفت إسلامية أو قومية لا يجوز أن تتخذ سبباً للاستبداد الفكري، ولا يجوز أن تتخذ نمطاً فكرياً في المجتمع الذي يسعىٰ للنهضة فعلاً، لأن العمل النهضوي عمل مجتمعي وليس عملاً جماعياً حزبياً فقط، وهناك فرق كبير بين العمل المجتمعي والعمل الجماعي الحزبي، لأن العمل الحزبي يضطر إلىٰ الاستبداد الفكري خشية تفكك الحزب وزواله كما سبق بيانه، وهو عاجز عن التطوير الفكري والثقافي لديه خشية الانحراف عن فكر المؤسس، أما العمل المجتمعي فغير مضطر إلىٰ الاستبداد الفكري لأنه عمل أكثر من جهة وكلها تعمل لهدف واحد، وتسعىٰ بكل ما أوتيت من قوة في تطوير ثقافتها وأفكارها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتعمل علىٰ تجاوز العقبات التي قد تعترضها بكل يسر وسهولة، هذه القدرة علىٰ البناء من جديد وتجاوز العقبات أهم لوازم النجاح.

وقد يظن البعض أن الدعوة الإسلامية غير قادرة على التجديد في البناء الفكري طالما هي أمام ثوابت شرعية، ولا تستطيع تجاوز العقبات طالما هي أمام طرق شرعية تعمل على أساسها، وهذا يتطلب الحديث عن الثوابت الإسلامية، والمتغيرات في الفكر الإسلامي، فالثوابت هي النصوص الأصلية للوحي وبيانه النبوي، والمتغيرات كل اجتهاد وفقه وفكر إسلامي مهما كان مجاله وزمانه، فما يدخل في دائرة الجهد البشري في التفسير والتأويل والفقه ليست من الثوابت، مثل التفسيرات العقدية التي هي تفسير نصوص الإيمان، والفقه الذي هو تفسير نصوص العمل، وتصنيف السيرة وهي التي تؤرخ لحركة الدعوة الإسلامية في العهد النبوي الشريف، هذه التصنيفات كلها تقع في دائرة الاجتهاد والتجديد بحسب القدرات المعرفية والعقلية والبيانية والعلمية للمسلمين، وما دامت كذلك لا يعترض على كل اجتهاد يقدم في دائرة التجديد في بيان طرق الدعوة الإسلامية، لأنه في دائرة الفكر الذي قد يختلف الاجتهاد فيها، وليست في دائرة الثوابت الإسلامية.

— 3 —

ولتوضيح ذلك ومناقشة هذا النمط من التفكير، نضرب مثلاً واحداً من السيرة النبوية، وبالأخص في طريقة إيجاد الدولة الإسلامية في العهد النبوي الشريف، والتي يتم فيها الربط الفكري بين الدعوة والدولة، إذ قبل الإسلام لم يكن للعرب دولة حقيقة أو دولة بالمفهوم الذي جاء به الإسلام، دولة ذات شرعية في الوجود وقانون في التحاكم، ولذا جاز القول: إن العرب والعالم أجمع لم يعرفوا الدولة الدستورية إلّا عن طريق الدعوة والدولة الإسلامية[1]، فصح اقتران وجود الدولة في تفكير المسلمين بوجود الدعوة التي توجد الدولة، وقد شجع هذا المفهوم الحركات والأحزاب الإسلامية التي قاومت الاستعمار وخاضت حروب التحرير ضد الاحتلال العسكري والغزو الفكري، فكانت دعوتها تنظر للدولة الإسلامية ـ بعد القضاء على الدولة العثمانية ـ حلاً لكل مصيبة تحل بالمسلمين وديارهم مهما قل شأنها أو كبر.

---

(1) انظر كتاب: في النظام السياسي للدولة الإسلامية، محمد سليم العوا، المكتب المصري الحديث، ط2، 1978م، ص8.

وقد ترسخ هذا المفهوم من خلال قراءتهم للسيرة النبوية علىٰ النحو الوحيد الذي نقل لهم في الغالب عن طريق محمد بن إسحاق رحمه الله، فيما عرف بعد ذلك بسيرة ابن هشام رحمه الله، والتي بدأت بأمر الدعوة في المرحلة المكية والحديث عما لقيه النبي عليه الصلاة والسلام من تعذيب من كفار قريش وزعمائها، علىٰ أنه في كل ذلك كان يسعىٰ إلىٰ قيام الدولة الإسلامية عن طريق الدعوة، ولذا واصل دعوته داخل مكة وخارجها حتىٰ التقىٰ وفداً من أهل يثرب فأسلموا وآمنوا بالقرآن ورسالة الإسلام، أي أنهم استجابوا للإسلام وهو في مرحلة الدعوة، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام أقام الدولة الإسلامية المدنية علىٰ إثر دعوته إلىٰ الإسلام وعمله للدولة معاً.

هذه القراءة المستعجلة تصف جزءاً من الحقيقة ولا تصف الحقيقة كلها، أو تتحدث عن بعض أركان العمل الدعوي وعلاقتها بالدولة دون ترتيب للمراحل الحقيقية التي مرت بها الدعوة وبالأخص في منتصف الطريق، أي وهي تشكل المجتمع المدني في يثرب قبل أن يهاجر إليها النبي عليه الصلاة والسلام، هذه القراءة المستعجلة تنظر للدعوة الإسلامية إما مكية أو مدنية كما هو الوصف الشائع للسور القرآنية إما مكية أو مدنية، وبالتالي تم تجاهل المرحلة اليثربية والتي استمرت ثلاث سنوات قبل هجرة النبي عليه الصلاة والسلام إليها.

— 4 —

كان اللقاء الأول بين النبي عليه الصلاة والسلام وستة نفر من أهل يثرب في العام العاشر من البعثة[1]، وقد أسلموا ولما عادوا إلىٰ يثرب: " دعوا قومهم إلىٰ الإسلام حتىٰ فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلَّا وفيها ذكرٌ من رسول الله ﷺ"[2].

---

(1) السيرة النبوية الصحيحة، الدكتور أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، 1412هـ - 1992م، ج1/ ص 194، وعزاه لمسند أحمد 3/ 322، وفتح الباري لابن حجر 7/ 222، وحسنه، ومستدرك الحاكم 2/ 625، وأقره الذهبي.

(2) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: سيد بن رجب، دار ابن رجب، المنصورة، 1423هـ - 2003م، 2/ 273.

وفي ذلك دلالة علىٰ أن الستة نفر قد دعوا قومهم إلىٰ الإسلام، وأن دعوتهم هي التي مهدت لبيعة العقبة الأولىٰ والتي وصفت ببيعة النساء، بسبب بنودها الاجتماعية، " حتىٰ إذا كان العام المقبل ـ أي الحادي عشر للبعثة ـ وافىٰ الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة، وهي العقبة الأولىٰ، فبايعوا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب[1].

وكانت بنود بيعة العقبة الأولىٰ بيعة النساء تدل كما رواها عبادة بن الصامت علىٰ أنها بيعة علىٰ تشكيل المجتمع المسلم قبل قيام الدولة الإسلامية، قال عبادة: (فبايعنا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب، علىٰ أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلىٰ الله عزَّ وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر)[2]، فهذه البنود تصنع المجتمع الطاهر والنظيف، " ولما أنجزت بيعة العقبة الأولىٰ، وعاد الأنصار إلىٰ المدينة بعث رسول الله معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فقام بمهمته خير قيام وانتشر علىٰ يديه الإسلام، ورجع إلىٰ مكة قبل بيعة العقبة الثانية"[3].

وفي العام الثاني عشر للبعثة التقىٰ النبي عليه الصلاة والسلام بثلاثه وسبعين رجلاً وامرأتين في بيعة العقبة الثانية في موسم الحج، وبعدها بأشهر كانت هجرة النبي عليه الصلاة والسلام بعد طلب من أهل المجتمع المدني في يثرب إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام أن يهاجر إليهم.

إن عدم تركيز ابن إسحاق أو ابن هشام علىٰ هذه المرحلة المهمة في الربط بين الدعوة والمجتمع والدولة وتحليلها لا يعني أن ذلك لم يقع، ولا أن الدعوة انتقلت إلىٰ مرحلة الدولة

---

(1) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: سيد بن رجب، دار ابن رجب، المنصورة، 1423هـ ـ 2003م، 2/ 273.

(2) سيرة ابن هشام، 2/ 433. والسيرة النبوية الصحيحة، الدكتور أكرم ضياء العمري، ج1/ ص 196، وقال: إسناده صحيح، فتح الباري لابن حجر 1/ 66، وصحيح مسلم 3/ 1333.

(3) السيرة النبوية لابن هشام، 2/ 434. والسيرة النبوية الصحيحة، للعمري، ج1/ ص 198.

المدنية دون المرور بمرحلة المجتمع، المجتمع الذي يسعىٰ بنفسه وبكل قواه الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلىٰ الدولة، لم تنتقل مرحلة الدعوة النبوية مباشرة إلىٰ مرحلة الدولة بمجرد وجود أنصار للدعوة، وإنما بإيجاد المجتمع الذي يؤمن بالدعوة ويحميها ويضحي من أجلها، لقد انتقلت مرحلة الدعوة الفكرية إلىٰ مرحلة المجتمع المدني الذي يقرر بإرادته وتحمله لمسؤولياته أن يأتي بالنبي عليه الصلاة والسلام من مكة إلىٰ يثرب، مهما كلفته الأمور من واجبات وتضحيات.

— 5 —

لقد أسس المؤمنون من الأوس والخزرج مجتمعهم اليثربي المسلم بعد بيعة العقبة الأولىٰ، وقبل هجرة النبي عليه الصلاة والسلام إليهم، وكان طلبهم من النبي عليه الصلاة والسلام أن يرسل معهم مصعب بن عمير يعلم أهل يثرب القرآن ويفقههم أمور دينهم، من أجل صناعة القناعات الاجتماعية والمدنية وليس صناعة القناعات الفردية في يثرب، لأن القيادات الفردية كانت قد أسلمت في العقبة الأولىٰ وقبلها، ولكنها تحتاج إلىٰ من يعلم الناس قيم هذا الدين، ومعاني هذه الرسالة الفكرية، وأن يعلمهم معاني الخير والمعروف ويحذرهم من معاني الشر والمنكر، أي أن يعلمهم قوانين الحياة الاجتماعية الجديدة.

وخلال أعوام، وبالأخص العام الأخير تحولت الدعوة في يثرب من المرحلة الأولىٰ وهي دعوة فكرية إلىٰ حركة فكرية اجتماعية يعرف بها ويدركها ويصدقها غالبية المجتمع اليثربي من الأوس والخزرج ومن هاجر ويهاجر إليهم، حتىٰ لم يبق بيت في يثرب إلَّا وفيه ذكر للإسلام ورسوله محمد عليه الصلاة والسلام، كما جاء في السيرة النبوية، أي أن الدعوة الإسلامية تحولت في المجتمع اليثربي إلىٰ المرحلة الثانية وهي حركة اجتماعية تشمل المهاجرين والأنصار، فلما وصلت الدعوة إلىٰ المرحلة الاجتماعية الثانية سعت إلىٰ المرحلة الثالثة وهي تنظيم نفسها سياسياً، أي في تنظيم العلاقة بين المحكوم والحاكم، فاستقر رأيها علىٰ دعوة النبي عليه الصلاة والسلام بالهجرة إلىٰ يثرب، وقبلوا كل شروط العباس بن عبد المطلب في التوثق لأمر ابن أخيه: أن لا يسلموه ولا يخذلوه، وهذا يؤكد أن أهل يثرب من الأوس

والخزرج هم الذين طالبوا بهجرة النبي عليه الصلاة والسلام إليهم، وفي قول جابر بن عبد الله الأنصاري: (فقلنا: حتىٰ متىٰ نترك رسول الله يطرد في جبال مكة ويخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتىٰ قدموا عليه الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتىٰ توافينا، فقلنا: يا رسول الله نبايعك، قال: تبايعوني علىٰ السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلىٰ أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة)[1].

أي أن المسلمين والمؤمنين من أهل يثرب هم المبادرون إلىٰ البيعة وعدم ترك الرسول عليه الصلاة والسلام مطارد في مكة، ولذلك اشترط عليهم النبي عليه الصلاة والسلام وعمه العباس الشروط المغلظة في النصرة، وقال لهم: (فإن كنتم ترون أنكم وافون له ما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحمَّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده)، وهذا يؤكد أن طلب الهجرة كان من أهل الحل والعقد في يثرب، إذ كيف يشترط رجل علىٰ قوم شروط هجرته إلَّا أن يكونوا قد طلبوا منه ذلك، وإن وافق ذلك رغبته عليه الصلاة والسلام.

والأمر الهام أيضاً أن بنود العقبة الثانية غير بنود العقبة الأولىٰ، فقد كانت البيعة الأولىٰ بيعة النساء ونحن نطلق عليها البيعة الاجتماعية، وكانت البيعة الثانية بيعة الحرب، ونحن نطلق عليها بيعة الدولة، لأن شرطها الأول، السمع والطاعة في النشاط والكسل، وهذا أهم شرط في وجود الدولة الحاكمة، ثم الركن الثاني وهو النفقة في العسر واليسر، والركن الثالث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(1) السيرة النبوية الصحيحة، الدكتور أكرم ضياء العمري، ج1/ ص 198، وعزاه لمسند أحمد 3/ 322، بإسناد حسن، ومستدرك الحاكم 2/ 624، وصححه وأقره الذهبي.

— 6 —

فإذا كان ذلك في العهد النبوي فكيف يكون الحال بعده، أي بعد أن لا يوجد الشخص الواجب بيعته وطاعته ونصرته علىٰ التعيين بوصفه نبياً ورسولاً، لقد كانت الدعوة في العهد النبوي هي صانعة المجتمع المدني في يثرب، والمجتمع اليثربي هو من بنىٰ الدولة المدنية، وبذلك نجد أن الدعوة حمل للفكر، والفكر الصحيح هو الذي يصنع المجتمع القوي، والمجتمع القوي هو الذي يوجد الدولة، والدولة هي من يعطي للفكر والدعوة والمجتمع السلطة، أي أن المجتمع هو الوعاء الأول الذي يتحقق به الفكر والدعوة، وأن دور الدعوة هو في إيجاد المجتمع الذي يتشرب قيم الدعوة، وأن الفكر لا يفرض علىٰ الناس فرضاً، وإنما يوجد بقناعة الناس به.

دور الفكر هو أن يعطي الناس القدرة علىٰ فهم الحياة، وأن يصبحوا مسؤولين عن حاجاتهم الجماعية، وفي تنظيم هذه الاحتياجات، وليس بالضرورة أن ينتشر الفكر بالدعوة وبالأخص بالمعنىٰ المذهبي والحزبي، وإذا كان لا بد من ذلك، فليس شرطاً أن تكون الدعوة قائمة علىٰ فكر واجتهاد رجل واحد فقط، بل من أشد أنواع الاستبداد الفكري أن تقوم الدعوة التي تنهض أكثر من مليار مسلم علىٰ فكر رجل واحد من المسلمين مهما بلغ علمه وجسمه، ولا يقاس أمر قيادة الدعوة الاجتهادية الفكرية بين المسلمين اليوم علىٰ الدعوة النبوية في مكة ويثرب والمدينة، فالنبي عليه الصلاة والسلام مصطفىٰ من ربه، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وقد فرض الله اتباعه وطاعته علىٰ التعيين ولم يتم ذلك لمسلم بعده، فالمسلم يدعو غير المسلم إلىٰ الإسلام، وإذا تعامل مع المسلم الآخر لا يدعوه إلىٰ الإسلام، وإنما يدعوه إلىٰ التعاون علىٰ البر والتقوىٰ والتشاور.

فإذا وجد أحد من المسلمين من يشاركه في الفكر والشورىٰ والتعاون علىٰ الخير، وليس اتباعاً لفكره فقد أدىٰ حقه وواجبه نحوه إخوانه من المسلمين، فهم الذين يشكلون مجتمعهم المسلم بحكم قناعتهم بما يؤمنون به أولاً، وبحكم أغلبيتهم العددية في ذلك المجتمع ثانياً، وبحكم إرادتهم الحرة في تنظيم علاقاتهم الاجتماعية علىٰ أساس ما يقتنعون به ثالثاً، فهم

لا يصنعون مجتمعهم المميز إلّا بالفكر والثقافة والوعي علىٰ الفكر، والإدراك لطريقة صناعة المجتمع المدني، وضرورة تقدم المجتمع وتنميته وبناء نفسه.

— 7 —

الفكر أساس الدخول إلىٰ تكوين المجتمع، والمجتمع هو الذي يفرض الحاجة إلىٰ الدولة، كجهاز منظم للحياة الاجتماعية علىٰ أساس من التعاون والمساواة والعدل بين أفراد المجتمع، والمفاهيم الاجتماعية هي التي تنتج المفاهيم الاقتصادية والسياسية التي تميز المجتمع عن غيره من المجتمعات، والدولة هيئة ممثلة للمجتمع من أجل تنظيمه وحمايته، علىٰ أساس فكر أفراده وثقافتهم، أي أن الدعوة لا تتحول إلىٰ مرحلة الدولة مباشرة، بل لا بد من المرور بالمرحلة الوسطىٰ أي المرحلة الاجتماعية، ولا يجوز تجاهل مرحلة التربية والتعليم والتثقيف الاجتماعي التي ترأسها مصعب بن عمير في مجتمع يثرب حتىٰ جعله مجتمعاً إسلامياً يسعىٰ بنفسه في طلب الدولة.

وإذا وصف ابن إسحاق البيعة في العام الحادي عشر ببيعة العقبة الأولىٰ أو بيعة النساء، فإنه يمكن وصفها اليوم بالبيعة الاجتماعية، لأن بنود البيعة تركزت علىٰ الجانب الاجتماعي كما سبق بيانه، بينما يمكن وصف البيعة الثانية بالبيعة السياسية أو العسكرية أو كما وصفوها من قبل ببيعة الحرب، مع الأخذ بعين الاعتبار الفروق الاجتماعية والسياسية في البيعة الأولىٰ والثانية، هذه المعاني والقيم من أهم ما علىٰ المسلمين التنبه له اليوم، وهو العمل الفكري والاجتماعي الذي يحفظ الهوية العربية والإسلامية من التفسخ والضياع، وبالأخص بعد أن ازدادت الهجمات الخارجية لهدم أسس المجتمع العربي والمسلم، بعد أن تم لهم من قبل هدم الكيانات السياسية القديمة.

وبذلك لا يجوز أن يتخذ تفسير واحد للسيرة النبوية تفسيراً نهائياً وثابتاً، سواء كانت من ابن إسحاق أو ابن هشام أو ابن سعد أو ابن جرير الطبري أو من غيرهم، لأن تفسيرهم للسيرة اعتمد علىٰ الروايات المتوفرة لديهم أولاً، واعتمد علىٰ النواحي التي كان يريد المؤلف

التركيز عليها وإبرازها ثانياً، إن كانت من السير أو المغازي، أو الجوانب الفكرية أو الصوفية أو السياسية أو غيرها، فلا يمكن الاستبداد بالفكر بحجة أن هذا الفهم هو الفهم الصحيح للسيرة، لأنه فهم صحيح بحق صاحبه، ولكل صاحب رؤية أو غاية فهم صحيح، ولعل الفهم الصحيح هو الفهم القادر علىٰ الإنجاز الصحيح في الواقع، أو الذي يمكن توظيف فهمه للسيرة في بناء الحياة الإسلامية القويمة، وليس الذي يمكن ادعاء صحته في الرواية أو التاريخ فقط.

ومن العبث أو إضاعة الوقت في العمل النهضوي فرض تصور واحد للعلاقة بين الفكر والمجتمع والدولة، أو نفي دور بناء المجتمع قبل بناء الدولة، لأن الدولة السياسية حصيلة طبيعية للوعي الاجتماعي وحاجته للدولة التي تحفظ أفكاره وتنظم أعماله وتمنع المفسدين من الاعتداء عليه، الوعي الاجتماعي هو الضمانة الأقوىٰ في الحفاظ علىٰ الفكر والدعوة والدولة معاً، فإذا لم يكن قوياً أو لم يقم علىٰ قناعة، سرعان ما تنهار الدولة ـ لو وجدت ـ وسرعان ما يصبح فكر تلك الدولة المنهارة جريمة اجتماعية وسياسية في نظر الدولة الجديدة، ولذا من الخطر المراهنة علىٰ الدعوة الانقلابية من غير قناعة المجتمع، لأنها إذا نجحت في الانقلاب فإنها لن تنجح في الحفاظ عليه، ولن تضمن تضحية المجتمع في سبيل الدعوة والدولة، وبالأخص إذا كانت القوىٰ المعادية لها الداخلية والخارجية بالمرصاد.